الاقتحام الأمريكي لبغداد ليس فيه شيء من الإنسانية أو الشرف

بغداد: روبرت فيسك

بدأ الأمر بسلسلة من الاهتزازات العنيفة، تلاها صوت انفجار ساحق هز غرفتي بالفعل. وتكرر صوت الانفجارات المدوية مرات ومرات. واستلقيت على السرير محاولاً أن أفهم السبب. كان الأمر شبيهاً باللحظة المخيفة في فيلم "جواريك بارك" (حديقة الديناصورات) عندما سمع السياح أصوات أقدام الديناصور للمرة الأولى، الذي كان يشبه صوت الرعد الذي يعلو شيئاً فشيئاً، ويجعل السامع يخاف أكثر فأكثر. ومن خلال نافذتي على الضفة الشرقية لنهر دجلة، رأيت بطارية مضادة للطائرات تابعة للجيش العراقي وهي تطلق قذائفها من على سطح منزل من أربعة طوابق على بعد ميل واحد، وكانت تطلق نيرانها مباشرة على شيء في الضفة الأخرى للنهر. وانطلق الصوت المدوي مرة أخرى منها، وكان من القوة بحيث إن صافرات إنذار السرقة انطلقت في آلاف السيارات على طول ضفة النهر.

ولم أتمكن من معرفة ما كان قد حدث إلى أن وقفت على إحدى الطرقات في الفجر. لم أكن قد سمعت صوت المدفعية الأمريكية منذ حرب الخليج الثانية في 1991. وهناك، على بعد عدة مئات من الأمتار فقط على الطرف الآخر من نهر دجلة، رأيت تلك المدافع، بدت في البداية وكأنها دودة طويلة مدرعة، تتوقف وتبدأ من جديد، وكأنها كانت صغيرة غريبة جاءت لتستكشف أرضاً غريبة بحثاً عن الماء.

وكان على المرء أن يستمر في النظر إلى تلك الديدان حتى يتمكن من تفسير الواقع، ويلاحظ أن كلاً من تلك المخلوقات كان عربة برادلي مقاتلة، وأن ذيلها لم يكن إلا مجموعة من مشاة البحرية الأمريكيين وهم يختبئون خلفها للحماية، ويتقدمون في كل مرة تتحرك فيها العربة التي يحتمون خلفها لتأخذ موقعاً جديداً على نهر دجلة.

كانت هناك دفعات من إطلاق النار من قبل الأمريكيين، ومجموعة من القنابل الصاروخية ونفحات من الدخان الأبيض من الجنود والميليشيا العراقية الذين كانوا يتحصنون بخنادقهم على نفس ضفة النهر على مسافة بعيدة نسبياً باتجاه الجنوب، كأن الأمر بتلك السرعة والبساطة والرهبة.

بالفعل، كان المشهد غير عادي وغير متوقع – على الرغم من كل وعود جورج بوش ومباهاة البنتاجون – حتى أن المرء نسي إلى حد ما السابقة التي يشكلها هذا العمل لمستقبل الشرق الأوسط بالكامل. وبين فرقعة إطلاق النار والطلقات المخططة المضيئة عبر النهر وحرائق النفط الهائلة التي أشعلها العراقيون لتعطيهم غطاء للانسحاب، كان على المرء أن ينظر باتجاه آخر – إلى الجسور الضخمة فوق النهر التي تقع على شمال تلك المنطقة، وإلى المياه الخضراء الشاحبة لذلك النهر العريق – ليلاحظ أن جيشاً غربياً في حملة أخلاقية قد شق طريقه إلى قلب مدينة عربية لأول مرة منذ أن دخل الجنرال اللنبي إلى القدس عام 1918. ولكن اللنبي دخل القدس على قدميه، احتراماً لمسقط رأس السيد المسيح، واقتحام الجيش الأمريكي لبغداد يوم الاثنين الماضي كان خالياً من التواضع والشرف.

اقتحم مشاة البحرية الأمريكية والقوات الخاصة المنتشرون على طول الضفة الغربية للنهر أكبر قصور صدام حسين، وصوروا الحمامات فيه واستراحوا على أعشابه قبل أن يتحركوا صوب فندق الرشيد ويبدأوا بإطلاق النار على الجنود والمدنيين العراقيين. ونقل مئات الرجال والنساء والأطفال العراقيين إلى مستشفيات بغداد وهم يعانون من جراح أصيبوا بها خلال الساعات التي تلت ذلك، وقد تعرضوا لإطلاق نار أو شظايا أو قنابل عنقودية. كان باستطاعتنا بالفعل رؤية طائرات "إيه 10" ذات المحركين الأمريكية وهي تطلق قذائفها من اليورانيوم المنضب على شاطئ النهر البعيد.

ومن الضفة الشرقية، راقبت مشاة البحرية يركضون نحو خندق وهم يعلقون بنادقهم على أكتافهم بحثا عن جنود عراقيين. لكن أعداءهم استمروا بإطلاق النار من الشقق الطينية الواقعة إلى الجنوب حتى رأيتهم، واحداً تلو الآخر، يهربون لينجوا بحياتهم. واندفع العراقيون خارجين من خنادقهم وسط القصف الأمريكي وبدأوا يركضون برعب إلى جانب المياه، وقد احتفظ معظمهم ببنادقهم، واكتفى البعض بالسير بسبب تعبهم، ورمى البعض بأنفسهم في نهر دجلة الذي غطت مياهه ركبهم وحتى رقابهم أحياناً.

وخرج ثلاثة جنود من الخندق وهم يرفعون

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

قطع الاثاث والثلاجات واجهزة التبريد.

وطلب حاكم كركوك المعين من قبل الاتحاد الوطني رزكاري همكام من افراد البيشمركة الذين دخلوا الى كركوك ان «ينسحبوا». واعلن همكام «ان البيشمركة لن يسمح لهم ابدا بالبقاء. يجب ان ينسحبوا»، من دون تحديد موعد لذلك.

وكان همكام، عضو اللجنة المركزية في الاتحاد الوطني يقيم لاجئا في بلدة دربنديخان الخاضعة لسيطرة الاتحاد منذ العام 1991 .

لكن قائد قوات الاتحاد الوطني الكردستاني عثمان بني مراني اعلن ان المقاتلين الاكراد سيبقون في الوقت الحاضر في كركوك للتحضير لمعركة تكريت، مسقط رأس الرئيس صدام حسين، على بعد 200 كلم شمال بغداد. وقال «سنبقى لاعداد خططنا من اجل (معركة) تكريت».

وفي انقرة اعلن وزير الخارجية التركي عبد الله غول في تصريح الى شبكة التلفزيون التركية «ان تي في» ان تركيا لن تسمح للاجئين الاكراد بتغيير التركيبة الديمغرافية لمدينتي الموصل وكركوك.

واضاف غول «لن نسمح بفرض اي امر واقع علينا» موضحا انه عبر عن موقف تركيا بهذا الصدد الى نظيره الاميركي كولن باول في اتصال هاتفي بينهما امس.

وقال غول ان تركيا اتفقت مع الولايات المتحدة على ارسال مراقبين عسكريين من انقرة الى شمال العراق للتحقق من ان القوات الكردية العراقية التي دخلت الى مدينة كركوك ستغادرها. واضاف «سيكون لنا مراقبون عسكريون هناك» مضيفا ان الاميركيين «تقدموا بهذا الاقتراح وقد وافقنا عليه».

وتابع غول «سنرى على الارض ما اذا كان سيسمح بامر واقع في كركوك ام لا». وما تزال انقرة تكرر منذ اندلاع الازمة في العراق ان سيطرة الاكراد على مدينتي كركوك والموصل الغنيتين بالنفط ستكون سببا لتدخل جيشها في شمال العراق.

وعلى الطريق الذي يؤدي الى كركوك على بعد 20 كيلومترا من الجنوب الشرقي من المدينة كانت ما تزال هناك عملية مواجهة في بداية منتصف الظهر بين القوات الخاصة الاميركية والقوات الكردية التابعة لحزب الاتحاد الوطني الكردستاني من جهة والقوات العراقية من جهة اخرى بالقرب من قرية لايلان التي تشكل معبرا استراتيجيا، حسبما افاد مراسل لوكالة الصحافة الفرنسية.

وحاول اعضاء في القوات الخاصة الاميركية ومقاتلون اكراد من البيشمركة السيطرة على هذه المنطقة التي كان يتحصن فيها عدد من افراد القوات العراقية يقومون باطلاق نار على القطاع.

وكانت القوات الكردية قد سيطرت في وقت سابق امس على العديد من المناطق على الطريق المؤدي الى مدينة كركوك منها مدينتا مخمور والتون كوبري.

كما اكد جوتيار نوري المسؤول في الاتحاد الوطني ان القوات العراقية في بلدة خانقين القريبة من الحدود مع ايران تقهقرت وان المقاتلين الاكراد سيطروا على البلدة الواقعة على بعد نحو 120 كيلومترا شمال شرقي بغداد. وفي وقت لاحق امس اعلن مسؤول في الاتحاد الوطني الكردستاني لوكالة الصحافة الفرنسية في انقرة ان الاتحاد سيسحب اليوم من كركوك حوالي 10 آلاف مقاتل دخلوا اليها امس.

واوضح ان زعيم الاتحاد جلال طالباني طلب منه ان يطمئن المسؤولين الاتراك الى انسحاب البيشمركة بعد ان تكون قوات اميركية قد نزلت بالمظلات في كركوك الليلة الماضية للسيطرة عليها.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية